موقف "باشلار" من المعرفة العامة (الحس المشترك) (المقالة العاشرة)

أد/ناصر هاشم محمد –أستاذ الفلسفة بآداب أسيوط

تقوم المعرفة العامة أو المعرفة بالحس المشترك على الوقائع الحية المباشرة، ويوصف الشيء بأنه نظرة حس مشترك إذا كان يأخذ به في عصر من العصور أغلب الناس، ومن ثم لا تؤلف آراء الحس المشترك مثلها في ذلك مثل الحقائق الرياضية موقفاً فلسفياً، إنما هي بالأحرى، طالما أن الفلسفة لا توجد من العدم، وكيان من المعطيات يكون بمنأى عن النقد الفلسفي ويمكن للفلسفة أن تبدأ فيه، وهو يؤلف في الآن نفسه المعايير التي في حدودها تقييم نتائج التحليل النفسي

ويرفض "جاستون باشلار" المعرفة بالحس المشترك أو المعرفة العامة بكل أشكالها، لأن هذه المعرفة لا يمكن الوثوق بها، لأنها معرفة خالية من النقد الذي يعد عنصر أساسياً ضرورياً من عناصر بناء المعرفة العلمية، لذلك يقول: "أن معرفة موضوعية مباشرة نظراً لأنها كيفية، تعتبر بالضرورة مغلوطة، فهي تقدم خطأ يجب تصحيحه، وهي تشحن الموضوع بانطباعات ذاتية حتما، وبالتالي لا مناص من تحرير المعرفة الموضوعية من هذه الانطباعات"

وفي النص السابق يحدد "باشلار" أهم شروط المعرفة العلمية وهو شرط الموضوعية التي تعني التحرر التام من كل ما هو ذاتي و شخصي، وهذا النص يهدم وينقض ما ذهب إليه ديكارت عندما قال في كتابه: "مقال عن المنهج" "الحواس والعقل ليست ملكتنا الوحيدة للمعرفة، بل هناك التجربة الداخلية التي يلمسها كل شخص في داخلية نفسه"

فالحقيقة التي أثبتها ديكارت بعد أن شك في كل شيء وعبر عنها بمقولته الشهيرة "أنا أفكر إذن أنا موجود" لم يتعلمها بالحواس ولا بالتفكير، وإنما عرفها عن طريق فعل مباشر للشعور.

إن المعرفة العلمية التي ينادي بها "باشلار" لابد أن تتجاوز التجربة الأولى، وهذه المعرفة تكون هدماً لمعارفنا السابقة الناتجة عن تجارب أولى لا استمرار لها، والجديد عند "باشلار" لا يمكن أن يأتي من خلال فعل الاستمرار، بل بالخروج على تاريخنا الماضي فإحساسنا بالماضى كما يقول: "باشلار" هو إحساس بالنفي والهدم".

ولهذا يصف بعض الباحثين فلسفة "باشلار" "بأنها فلسفة النفي أو السلب أو الانفصال ،لأنها فلسفة تقوم على رفض الآراء العامية والتجربة الابتدائية والوصف المبني على مجرد الخبرة، أنها الفلسفة التى تقول "لا" لعلم الأمس والطرق المعتادة في التفكير، ولا تأخذ من "البسائط" أي الأفكار البسيطة على أنها أفكار بسيطة فعلاً،ويجب

التسليم بها دون مناقشة، بل إنها تجتهد في مقدمة هذه البسائط وتقدم جدليا لتكشف عما ينطوي عليه من لبس وغموض، ولكن ذلك لا يعنى أنها فلسفة سلبية كما يرى هؤلاء الباحثون لذا نجد "باشلار" يضع تميزاً واضحاً بين مفهوم النفي والسلب في فلسفته فيقول: "إنه من الواجب إن ننبه دوما إلي أن فلسفة النفي ليست من الناحية السيكولوجية نزعة سلبية، ولا هي تقود إلي تبني: العدمية إزاء الطبيعة، فهي بالعكس من ذلك فلسفة بناءة سواء تعلق الأمر بنا نحن أو بما هو خارج عنا، فلسفة ترى في الفكر عامل تطور عندما يعمل

إن الحس المشترك هو نوع من النشاط العقلي يطلق عليه "الإدراك الشائع" " -

وهو طريقة في التفكير يألفها الناس بعيداً عن تخصصاتهم الدقيقة وتجري سهلة في تناولهم لأمور معاشهم ،والحس المشترك ليس كيانا متجانساً محدداً بل تتفاوت مقدماته ومفاهيمه وأساليبه في الاستدلال لدي الأفراد*، وهو خليط من العلم واللاعلم وغير العلم، وهو يختلف من عصر لأخر ومن مجتمع لأخر ويكون وفقاً لما يسود المجتمع من دين وفلسفة وذوق فني والتزامات أيديولوجية إلي جانب ما رسخ من مفهومات علمية أثناء المراحل الأولية من التعليم يلم بها معظم الناس، فوفقا لما أستقر وساد لفترة طويلة من تلك الجوانب يتشكل الإطار العام للحس المشترك

ويرفض باشلار المعرفة العامة التي أساسها الحس المشترك لأن هذا النوع من المعرفة غالباً ما يؤدي إلي وقوع أخطاء وعقبات معرفية أخرى أكبرها خطأ التعميم المتسرع فيقول: "باشلار" "إن ما يعوق الفكر العلمي المعاصر أن لم نقل عند مبدعيه، فعلى الأقل في المهمة التدريسية هو التصاقه بالحدوس الشائعة والتجربة المشتركة الموضوعية في نطاق مقدارنا الكمي، عندئذ لا يكون المطلوب سوى القطع مع العادات ولابد للعقل العلمي من الجمع بين المرونة والدقة، وعليه أن يعيد جميع بناءاته عندما يتناول مجدداً ميادين جديدة، وأن لا يفرض في كل مكان شرعية المقدار الكمي المألوف

لقد رفض "باشلار" تعريف العلم بأنه تلك النزعة الوضعية التي تهدف إلي ملاحظة الوقائع، لأن في هذا التعريف خلطا كبيرا بين المعرفة العلمية الدقيقة والمعارف الحسية المهوشة، وآية ذلك أن مفاهيم العلم تختلف اختلافا جوهريا عن مفاهيم النزعة التجريبية التي تتوقف عند ما يقدمه لنا الإدراك الحسي العادي من موضوعات منفصلة ومشتتة، وعلى حين يعمل العالم على اكتشاف القوانين الخفية، ولا يكتفي بمجرد تسجيل الوقائع، وهذا ما جعل "باشلار" يقول بأنه "لا علم إلا بما خفي"

ويتفق فيلسوف العلم كارل بوبر (1902 – 1994) تماماً مع "باشلار" في رفض هذا الخلط بين المعرفة العلمية ومعرفة الحس المشترك التي يدافع عنها بعض الفلاسفة أمثال "توماس ريد" و "جورج مور" ويعتبرونها أساس للمعرفة، كما يتفق "بوبر" مع "باشلار" في رفض القول بأن المعرفة تبحث عن العلاقة بين عقولنا الذاتية وموضوعات المعرفة، فعند "بوبر" رغم حاجتنا الضرورية للإدراك الحسي إلا أن ذلك لا يعني أن معرفتنا تبدأ من الإدراك الحسي، لأن الحواس من وجهة نظره التطورية هي "أدوات تم تدريبيها على حل مشكلات بيولوجية معينة" إذن يجعل "بوبر" معايير التمييز بين الإدراك الشائع "الحس المشترك" والإدراك العلمي هو الاختبارات الشديدة لكل ما ندركه، فالحس المشترك يقف عند الربط بين المظاهر المباشرة للأشياء، أي بين بدايتها ونهايتها بحيث تصبح على الشيء كأنها قوة محدثة خالصة، بينما يقوم الإدراك العلمي على تتبع الحوادث في الزمان والمكان وتنظيم ملاحظة العلاقات التي تربط بالظواهر محل البحث، ومتابعة العمليات والتغييرات التفصيلية التي تنطوي عليها الظواهر، كما أن الإدراك الشائع لا يفرق بين ما هو عارض وعابر وما هو جوهرى وثابت، كما أنه يتأثر تماماً بالميول والرغبات الذاتية على عكس الإدراك العلمي فيقول بوبر: "إن أهدافنا وأمنياتنا وتفضيلاتنا تلعب دوراً كبيراً في الحياة وفي الإدراك الحسي، فهي rتحدد تفسيراتنا التي نحاول اختبار صحتها والتحقق من صدقها أو كذبها

، وكان يعتبرها tوكان "برتراند راسل" (1971) يطلق على المعرفة بالحس المشترك المعرفة بالاعتقاد أو الحكم صورة فجة غير منقحة للمعرفة العلمية، لأن العلم يذهب إلي أبعد مما يذهب إليه الحس المشترك، إذ أن الحس المشترك مسئول عن اعتقادنا باطرادات معينة، كما أنه مسئول عن مشكلة التعميم الاستقرائي الناجم عن الملاحظات المتكررة التي حدثت لنا في الماضي، فنحن نعتقد أن الشمس سوف تشرق غداً لأنها طلعت في الماضي، إن المعرفة بالحس المشترك عند "باشلار" و" بوبر" ومعظم فلاسفة العلم هي أحد أنواع المعرفة

بالمعنى الذاتي التي يعرفها "بوبر" بأنها تتكون من حالة العقل أو الشعور أو النزوع إلي تصرف أو ممارسة رد فعل، وهي اعتقادات الذات، وما تراه أو تفسره أو تنكره

إن الخطأ الأكبر في هذه المعرفة هو أنها تنتهي إلي الاعتقاد، و المعرفة العلمية الحقة تنتهي إلي الاحتمال، أي إلي نتائج تحتمل الخطأ،المعرفة العلمية هي فقط التي تمثل البحوث الدائمة للابستمولوجيا، وهي المعرفة التي تقوم على الأساس المنطقي ولا تدرس اعتقادات البتة، فالعالم لا يدعى أن افتراضه صادق أوكاذب، كل ما يفعله هو أنه يطرحه في العالم الموضوعي فتدرسه الابستمولوجيا، وتقنن مدى قدرته على أعطاء قوة شارحة وعلى حل المشكلات المطروحة، وتقارن بينه وبين الفروض الأخرى

ولكن على الرغم من أتفاق "باشلار" ومعظم فلاسفة العلم المعاصرين على رفض بناء العلم على أساس المعرفة بالحس المشترك ،إلا أننا نجد من الفلاسفة المعاصرين من يدافع عن هذه المعرفة أمثال الفيلسوف الأمريكي المعاصر "أرنست ناجل" الذي يعد المعرفة بالحس المشترك الأساس الذي يقوم عليها العلم فيقول: "العلوم هي الحس المشترك نفسه ولكن في صورة منظمة مصنفة"

ويؤكد "ناجل" على أن الصلة وثيقة بين المعرفة العلمية المنظمة والمعرفة بالحس المشترك، ويجعل الثانية أساس الأولى ويقف الفيلسوف الكبير "آلفرد آير" (1910) موقفا وسطا بين الاتجاه الرافض للحس المشترك الذي يتزعمه "باشلار" و"بوبر" والاتجاه المؤيد للحس المشترك ويتزعمه "ناجل" و"توماس ريد" و "جورج مور".

فيقول "آير" أن المعرفة العلمية هي صورة متطورة من المعرفة القائمة على الحس المشترك، أي أنها تبحث في العلاقة بين عقولنا الذاتية وموضوعات المعرفة، أي أن الخصائص القابلة للإدراك للشيء المادي وإن كانت تعتمد على إدراكنا لها، فأنه يوجد ما يمنع أن تكون هي الخصائص الفعلية للشيء المادي، فلا يوجد ما يمنع من القول إن اللون خاصية فعلية للشيء لمجرد اعتمادي على إدراكي ل

أن آير يرى أن مفاهيم العلم تختلف اختلافاً جوهريا عن مفاهيم النزعة التجريبية التي تتوقف عند ما يقدمه الإدراك الحسي العادي، وأن الاختلاف بين الاتجاهين السابقين منشأه اختلافهم في فهم كل منهما للفظ "فعلي" فالعلم يرى أن الخصائص العقلية للأشياء المادية تعتمد خصائصها على إدراكنا وعلى بيئتها، إذن فهي ليست خصائص فعلية للشيء

وخلاصة رأي "آير" أن المعطى الحسي هو ما يدرك مباشرة وهو الموجود، ولا يعني ذلك أن الخصائص التي تبدو أنها له، لهذا نجد آير ينفي القول بإمكانية وهم أو خداع في وجود المعطيات الحسية لهذا يقول: "لا يمكن للمعطيات الحسية أن تكون لها خصائص لا تبدو لها، كما لا يمكن أن تبدو للمعطيات الحسية صفات ليست حقيقية لها"

وأخيراً نقول إن الأساس الذي تقوم عليه المعرفة العلمية عند "باشلار" وهو القطعية المعرفية أو الثورية العلمية على كل ما هو مألوف وشائع وسائد يؤمن به الناس عن طريق حسهم المشترك يجعل من المستحيل الإقرار بالمعرفة بالحس المشترك، ولم تتقدم العلوم الطبيعية والكيميائية في نظر "باشلار" إلا عندما أحدثت قطيعة مع المعرفة بالحس المشترك "فبفضل الثورات العلمية المعاصرة بات بالإمكان التحدث بلغة "أوجست كونت" عن مرحلة رابعة، باعتبار المراحل الثلاث الأولى موافقة للعصور القديمة، فالقرون الوسطى والأزمنة الحديثة، أما المرحلة الرابعة وهي المرحلة الحالية فهي بالتحديد تتطلب "القطع" بين المعرفة العامية والمعرفة العلمية، بين التجربة العامية، والتقنية العلمية